امكان المعجزات

للاب لويس مالوف اليسوعي (راجع ص ٤٨٩)

مما لا محاكمة فيه ان المعجزات من حيثيتها التاريخية لامر سهل التعهد بين المطلع واقل ما يُقال فيها انهُ يتمكن المرء من تحقيق وقوعها على حدّ ما يتمكن من تحقيق اي حادث تاريخي كان. ان حدثت معجزةٌ امامك او كانت مما حدث في القرون السالفة فهي من الامور المحسوسة تنظرها العين وتسمعها الاذن او تقام على تصديق وقوعها البيّنات التاريخية

وعليه فالمعجزات تقع تحت سيطرة الانتقاد والتحقيق والتمحيص التاريخي ومتى اجاد المرء في بحثهِ عن حقيقة وقوعها بواسطة المبادئ الانتقادية فلا مانع يمنعهُ من التوصّل الى إدراك اليقين من هذه الجهة. فان كان المعجز مثلًا اقامة ميت من قبرهِ فايُّ عائق يعيق عن تحقيق تعاقب الحياة والموت فيهِ ثمَّ عَوْد الحياة بعد الموت وادراك كلّ حالةٍ من تلك الحالات الثلاث بخاصيلها وظواهرها وخواصها مما لا يترك للريب مجالًا؟

وهذا الامر البسيط الذي لا يسوّل لك صاحب عقلك ان تردّهُ هو الذي توقف عندهُ بعض زعمة العلم ولكم ضلّوا الجادّة القويمة ضلالًا فاحشًا حيث لا يدركون

قالوا ان كان هناك من يخبرك بحدث يخالف النواميس الطبيعية ويخرق ما عهدناهُ في عالم الكائنات فاعرض عنهُ ولا تتكلّف مؤونة البحث. انهُ لا ريب مخرقة او شعوذة او ضربٌ من الاختلال في الشعور ومسٌّ في العقل

لو اتى اصدق واعدل شاهد وقال لنا انهُ رأى صخرًا انفصل عن الحضيض وحلّق في الجو مرتفعًا فكل من كان صحيح العقل يعدّ شهادتهُ تلك قولًا فارغًا لا يُلتفت اليهِ (١

فكيف بمن جاء يخبرهم بايقاف الشمس في مجراها واقامة الميت من ترابهِ ؟

ولِمَ ؟

لزعمهم ان المعجزات والخوارق امر لم يقع ولن يقع. وذلك الزعم لهم فيهِ تعليلات واهنة نأتي عليها ان شاء المولى في ما يلي

(١ Rabier : *Logique*, ch. 18

وليسمح لي الآن حضرة القراء الكرام ان انظر معهم قليلاً في شأن امكانية المعجزات من حيث هي

المعجزات من جهة الاعجاز وخرق القوى الطبيعيَّة على انواع:

منها ما يفوق مستطاع ايّ مخلوق كان كاعادة الميت الى الحياة. فهذا وما كان من طوره لا يستحيل فعلهُ على القدرة الالهيَّة غير المحدودة. اذ ان اقامة الميت مثلاً شيء ممكن ليس فيه ما يخلُّ بصفات البارئ تعالى: ممكن لان عود النفس الى جسد كانت فيه وارتباطها به من جديد ليس في ذاته باقلّ امكانيَّة من وجودها فيه واتحادها به عند تألف المركَّب الانساني في الولادة. واماً من جهة الكمالات الربانيَّة فان الله اذا اقام ميتاً واعادهُ الى الوجود فلا يقل تلألأ رحمته وجودته وحكمته عمَّا كانت تتلألأ في حفظ الانسان في قيد الحياة

ومنها ما يكون من مستطاع القوى الطبيعيَّة ولكن ليس الَّا في ظروف معلومة وبشروط مقرَّرة: لا يعجز الطبيب عن ابراء العضو المجروح واعادة انسجته وشرايينه وعروقه الى انتظامها الطبيعي كمن ذي قبل ولكن بشرط ان يتخذ الاحتياطات اللازمة ويستخدم الوسائل الكافية وخصوصاً بشرط ان يمضي على تطبيبه الزمن الكافي لتتمكَّن القوى الطبيعية من إعمال عملها. والمعجزة في هذا تكون بابراء المجروح دون تلك الوسائل او تكون على فور بكلمة وبلمحة عين

وهنا ايضاً لا نجد مانعاً يمنع الله من فعل المعجزات من هذا النوع لانَّ ما يقوى عليه الفاعل الثانوي اي المخلوق المتناهي العمل المحصور التأثير في ظروف وشروط معلومة فالبارئ الكلي القدرة يقوى على فعله كيف ومتى شاء. انَّهُ تعالى لا شيء يحدُّ عملهُ ولا يشترط عليه شرط فيما اراد احداثهُ. يقول كن فيكون ما شاء كيف ومتى واينما شاء.

ثمَّ من المعجزات ما يكون ضد وعكس ما تقتضيه طبيعة الشيء الذي تحصل فيه المعجزة كأن يقوم الصخر في الفضاء دون ان يعمده عامد او ان يُلقى رجل في النار ولا يحصل لهُ منها اذى

هذا وما ضاهاهُ لا يستحيل على البارئ اجراؤهُ في الورى. لان تلك المفاعيل الطبيعيَّة: كاحراق النار وهبوط الاثقل الى ما تحت ليست مما يستحيل على الله ابطاله وابدالهُ بتأثير يخالفها مخالفة كليَّة. والدليل العقليّ ان بين جوهر كل شيء وفعله او تأثيره

امتياز ثابت مقرر: بين جوهر النار واحراقها. بين جوهر وذات العين ونظرها الخ. وهذا الامتياز هو في القوى العقلية والارادية اظهر ومن لا يرى الفرق بين العقل اي قوة الادراك وفعل الادراك ذاته. وقت المنام مثلاً بنا جوهر العقل اي قوة الادراك ولكن لسنا ندرك عندئذٍ امراً. اذاً يمكن وجود جوهر الشيء كالنار مكتوفاً عن ابراز عمله كالاحراق. ولذلك لا يرى العقل مانعاً من ان يتخذ الله لداع صوابي جوهراً من الجواهر ويكفه عن العمل والتأثير في حالة من الاحوال

زد ان كل الاشياء قائمة بأيد الباري وحفظه اي انه تعالى اذا انسحب عن كائن من الكائنات تلف هذا الكائن جوهراً وعملاً وعاد الى عدمه. فمن يا ترى يدلنا على ان الله لا يقدر ان يحمل الشيء من حيث عمله فقط فيصبح جوهراً دون عمل. وكذا يصح وجود نار لا تحرق. او من يدلنا على ان الله متى كف جوهر الشيء عن عمله لا يمكنه ان يعيضه بعمل آخر يخالف عمله الطبيعي او يعاكسه ؟

اذن المعجزات في كل نوعياتها ليس فيها ما يعسر على الله احداثه

تلك ادلة عقلية ثابتة لم يوهنها اعتراض معترض. اتجه قصدي بها الى دك الاقاويل السفسطية التي يحاولون الاحتجاج بها في امكانية المعجزات. ولقد كان لنا غنى عن تلك الادلة ووعورة مسلكها باعتبار ما يراه مرأى البصر كل عقل سليم لم تغوه الضلالة

أيقتضي فعل المعجزات قوة فوق تلك القوة القديرة التي اقام الباري عليها شهوداً في بدع ما بدعه ؟

من دحا الثوابت والسيارات في عالم الفلك تسير سيرها مُلتحفة بالبهاء وغائصة في بحار انوارها البديعة تدور على دوائرها دوراناً محكماً فلا تعرج عنه عرض الاصبع وتلتهم المسافات التهاماً دون ان تبطئ عن مواعيدها او تتجاوزها لمحة بصر.. أذاك التدبير يعجز عن ايقاف الشمس يوماً في مسيرها او يعسر عليه نقل شخص من الارض الى طبقات الجو او من بلاد الى بلاد باقرب من وميض البرق ؟

أمن جعل بطون الارض تغلي مراجلها فتنفجر عنها البراكين وتتصاعد انفاسها النيرانية حتى السماء. أمن ملأ البحار الشاسعة واجرى الانهار تتدفق من اعالي الجبال على الآكام والوديان والسهول فتكسى الارض نضارة وجمالاً ثم تسرع الى مقرها وترتاح من تقلبها بعض الزمن ثم تهب من ذلك السبات فتنتشر في الفضاء سحاباً ثم

تنسكب على الرياض ندًى منعشًا او تنهطل على الروابي مدرارًا فتسرى في شرايين الهضاب فتنبعث عيونًا مُرويّة وجداول مخصبة تحيي الارض بعد موتها. أذلك الجميل الصنع يعجز عن قليل ما تقتضيهِ المعجزات من تكيُّفات المادَّة او تحوُّلها من حالة الى حالة. أيعجز مثلًا عن جعل الماء كاديم الارض او امتن يحمل من مشى عليهِ او يضعف عن ردّ الماء الزلال خمرًا رحيقًا

أمن جبل العين وصاغ الاذن أمن ركّب القلب وفعل فيهِ من العجائب ما فعل أمن يخلق كل يوم الالوف والألوف من النفوس الناطقة. أذلك العليم البصير الرحيم يعجز عن ان يعيد لاعمى بصرهُ او ان يردَّ نفسًا الى جسد محرتهُ ؟

فايمن الله انَّ الذي انكر هذا قد اتى ببهتان لا يقوم لهُ امام نظر العقل قائم

لكنهم يقولون: ان الله لا شكَّ قادر على مثل ذلك ولو كان يعنيهِ امرنا لما عسر عليهِ ان يصنع الالوف من العجائب والمعجزات ولكن انهُ اسمى واعظم من ان يهتمّ بنا فيتنازل الى مريض يشفيهِ او ميت يُحييهِ

لعمرك ان من قال هذا القول لقد جهل من صفات ربّهِ ما دلَّ عليهِ العقل دلالة جليَّة ونادت بهِ كل عاطفة من عواطف القلوب وكل نسمة من نسمات الارواح

كيف يستدلّ العقل على ان الله لا يقدر ان يهتمّ لمن برأهُ ومن اين الحجّة القاضية على الله ان يهمل الكائنات ويدعها الى خلواتها مفقةً منسيَّة. أعقلك يرى ان ليس للمنشئ ان يُعنى بما انشأهُ ولا المالك بمملوكهِ ولا المتبوع بتبعهِ ولا الوالد بولدهِ. ام تقول ان الاهتمام للخليقة واحوالها اقرب الى النقص ممَّا هو الى الكمال فلا يصح نسبتهُ لرب الكمال. ولكن كيف يكون في هذا نقص ولم يعتدَّ الله بنقصًا بكمالهِ ان يُخرج البريَّة من عدمها ويسنّ لكل من مبتدعاتهِ سُنَنها ويحدد لها حدودها ويخلق لها كل ما يكفل لها دوام الوجود وحسن الثبات. لم يمنعهُ كمالهُ عن هذا فلِمَ يا ترى عن مداومة السهر على ما اراد بهِ دوامًا وسيرًا على خطط قويمة

وان وجّهت لحظك الى الامم في كلّ آن ومكان واصغيت سمعًا الى ما تبديهِ القلوب من الحركات والعواطف وحاولت ادراك شيء من طوياتها واسرارها الخفيَّة لألفيتها صوتًا واحدًا يعلن أن لله عناية بمخلوقهِ وقلبًا ساهرًا على عبادهِ وعين تراقب كلّ ما يجري في الكون من اصاغرهِ الى اكابرهِ

يرى حركات النمل في ظُلَم الدجي ولا يخفى اعلانٌ عليهِ واسرارُ

وما اشهى قول البرعي اذ ذكر ان الله لاقرب الينا من الصحب والجار واثبت على موالاتنا من الصديق الحميم :

مُقيلَ العاثرين أقِل عثاري وخذ لي من بني زمني بثاري

. . . . . .

وان يكُ عقَّني صحبي وجاري فجودك بالذي ارجوهُ جاري

. . . . . .

سخرتَ الشمس خلف البدر تجري بها الافلاك من غادٍ وسارِ

وتمسك في الهواء الطير بسطاً وقبضاً في رواحٍ وابتكار

وتكفل كلَّ وحشٍ في البراري وترزق كلَّ حوتٍ في البحارِ

الهي عافني واصحَّ جسمي وصل واقبل برحمتك اعتذاري

وطهِّر قالبي وتغشَّ قلبي بانوار السكينة والوقارِ

وان كرَّرتُ مسئلتي فكلِّفني الى كرمٍ يفيض بلا انصارِ

ذاك ما نشعر بهِ في مخادع القلب

اذًا الله يُعنى بنا وبنظام كونهِ ان ماديًّا وان ادبيًّا وان دينيًّا وان اقتضى حسن ذاك النظام ان يبدي الله غريبًا امرًا ومعجزًا فما هو بقاصر عن ذلك

كذا لا ركن ولا اساس لما قالوا من انَّ الخوارق والمعجزات تشير الى تغيُّر رأي وتقلُّب خاطر في البارئ او تدلّ على عدم احكامهِ الخلق من بادئ بدئهِ

فانَّ الله متى اراد فعلًا معجزًا لا يقصد إلغاء شيء مما رتب ولا يغيّر النواميس التي امر البرايا ان تجري عليها كما مرَّ بك . اراد جلَّ جلالهُ منذ خلق البرايا ان تكون لها سنن ثابتة وقضى ايضًا بان يجري في ازمنة سبق اليها علمهُ بعض حوادث تفوق وتخالف تلك السنن ذاتها . او هل تمنع السنن المسنونة والشرائع المشترعة ان يحيد عنها صاحب الامر عند ما يحلو لهُ او في احوال يعينها المشترع ذاتهُ لاسباب صوابيَّة تعود على صلاح الدولة بخير اوسع واعمّ

بقي ان الله قادر على فعل المعجزات ولا مانع يمنعهُ عن الاتيان بها متى شاء . على انهُ تعالى لم يكن ليفعل شيئًا من هذا الّا لغايات حميدة تليق بجلالهِ كما مرَّ وان لم نذكر تلك الغايات التي من شأنها ان تحمل المولى على صنع الخوارق او السماح بحدوثها فما تكون وفينا البرهان حقّه . وتلك الغايات اقرب للادراك من ان تقتضي بيانًا طويلًا

فهيَ تكون اماً اغاثة الملهوف او اجابة المطلوب او اظهار الحق او ردع الظالم عن ظلمهِ او ... وفي كل ذلك احياء القلوب وانشاش الهمم واشراق نور الهدى على قمم الالباب فينجم عن ذلك تحسين الاخلاق واخلاص التعبُّد وسعادة الحال في الدارين. فتكون المعجزات نعماً عظمى يرسلها المولى الجواد من فيض كرمهِ على العالمين فتصبح لهم من اقوى ما ساعدهم على الانقياد لربهم والسير على خطط صلاح وتقىً توصلهم الى هناء الخلد. وهي الغاية القصوى التي قصدها اذ برأ الكون ونظمهُ

ذلك اذا صرفنا النظر عن امر الوحي وما يترتَّب عليهِ. اماً اذا افترضنا نزول وحي على بعض عباد الله — وانت لا تجهل انَّ معظم الاديان التي تتضارب وتتعاند على وجه البسيطة قد ادَّعت هبوط الوحي على زعمائها — فقد وجب ان يكون الله في حكمتهِ القدوسة قد اقام لنا ادلَّة وعلامات نستدلُّ بها على حدوث الوحي ان كان ونستبين بها صِدْق مَن صدق وبهتان مَن لفَّقوا مذاهبهم تلفيقاً

وتلك العلامات لا يغرب عن عقلك السليم انها ينبغي ان تكون جليَّة البرهان قريبة الادراك قاطعة الحجَّة تُقنع العالم ولا يعسر على الجاهل منالها والاستدلال بها فما عساها ان تكون ؟

هناك لا شكَّ براهين وادلَّة وعلامات مقنعة اقناعاً يقينياً ولكن منها ما كان دقيق الحجَّة خفيَّ البيان الَّا على بعض ارباب العقول الثاقبة والالباب الذكية. ومنها ما لو أُفرد عن غيرهِ لما قضى على كلّ شك وتمويه. ومنها ما لا يحق ان يقوم برهاناً الَّا بعد السنين الطوال. ومنها ما يستحيل على السواد الاعظم فهمهُ. ولو اتسع بنا نطاق القول لاتينا على هذه بشيء من الايضاح على انَّهُ من المسلَّم بهِ والذي لا ينكرهُ الَّا من عاند الحقّ معاندة لن الدليل الاعلى والاجلى والآمن والاقرب الى الفهم بالنظر الى عموم الناس متى اردنا الاستدلال على ان الله قد اوحى ديناً لهو المعجزات: متى ثبت ان الله فعل معجزاً او اجراهُ على يد احد اوليائهِ تصديقاً لوحي وتقريراً لعقيدة فذلك الوحي وتلك العقيدة من حيث ورد المعجز مثبتاً لها لهو الوحي الحقّ والعقيدة السليمة القويمة

وانني لعمرك يخال لي من الحقائق التي لا مردَّ عليها انَّهُ لو لم ترد لتأييد صدق الوحي معجزاتٌ راهنة مثبتة اثباتاً تاريخياً تقيم عليهِ الدليل لما امكن اقناع السواد الاعظم من عباد الله بوجوب الانحياز لذلك الدين الموحى بهِ والتمذهب لهُ والقرار

على يقينه قرار من استنار بانوار الهدى والحق لا من شرب الاوهام عن جهل وغواية وذلك اذا ما قصده او يمكن ان يقصده المولى بصنعه المعجزات: ان يقيم حجة دامغة تقنع كل العقول بنزول وحيه. فان كان تكرّم علينا بوحي قد اقام المعجزات بيّنة عليه. فالحالة هذه تكاد ان لا نكون في غنى عنها

اذن ليست المعجزات مما يليق فقط بالباري ان يفعله بل هي ايضاً مما يقتضيه جوده وحكمته وصدقه ورحمته بالعباد

اذن وجب القول — ولا ارى وجهاً لردّه — انّ المعجزات ممكنة الحصول وانك سواء اعتبرت قدرة الله او نظرت الى حكمته او فكرت في عنايته الربّانيّة ورأفته بالبشر فالمعجزات لا شيء فيها يخلّ بكمالات العلي بل كل ما فيها ينادي بحكمته التي لا يحدها حدّ

فثبت اذن اقتدار الباري على احداث المعجزات متى شاء. وذلك مما يقرّ به كل عقل سليم لم تغوه الغواية ويسهل كما ترى استخراجه من الاصول العقليّة الراهنة. والحق يقال انني لا ارى كيف يتيسّر لمن قال بوجود اله قدير حكيم ان ينكر امكانيّة المعجزات وقد تفقدتُ تآليفهم فما ألفيتهم اتوا بحجّة ضد ذلك تحتها طائل. وهذا هو المبدأ الاصلي والأهمّ في كل هذا الباب

ولكن كم عهدتهم يقولون ويشحنون الكتب بما خلاصته: اننا وان سلّمنا بامكانية المعجزات من قبل الله فمن لنا بان ندرك ما صحّ منها وما فسد. كم هناك من الخرعبلات والخرقات. كم من الخوارق الموهومة التي لم تخرق الّا فهم جهل القوم ومن خفت عليهم اسرار الطبيعة وقواها الغريبة. كم اتى عصرنا بالافعال العجيبة التي لو رآها السلف لأ لفوها لا شكّ غرائب ومعجزات. بل ها غرائب التنويم. ها غرائب التلقين. ها الامور التي تجري على ايدي من خالطوا الارواح. فمن يمكنه التوصّل الى ادراك المعجزات الحقّة الصادرة عن فعل رباني تصديقاً للعقيدة وتمييزها مما يضاهيها وتلك الحوادث. اذن فالمعجزات ان وقعت لا يمكن ادراكها. فهي تكون عبثاً. والله لا يأتي امراً عبثاً

اجل هناك احوال صعبة المراس تقتضي تدقيقاً وانعام نظر. وعليها كلامنا في مقالة تلي ان شاء الله